الفصل الثانى

القصدانية

طريقة تناول المنظومات القصدية

بدايات بسيطة :

مولد العامل الفعال :

ليس من حبة رمل يكون لها عقل ؛ فحبة الرمل أبسط جداً من ذلك . بل الأبسط من ذلك أنه ما من ذرة كربون أو جزئ ماء لها أوله عقل . ولكن ماذا عن الجزيئات الأكبر ؟ إن الفيروس جزئ واحد ضخم ، جزئ كبير يتكون من مئات الآلاف أو حتى ملايين الأجزاء ، الأمر الذى يعتمد على مدى صغر الأجزاء التى نحسبها . وهذه الأجزاء فى المستوى الذرى تتفاعل معا بطرائقها ، وهى طرائق من الواضح أنها لا عقل فيها ، وذلك حتى تنتج بعض التأثيرات المذهلة . ومن وجهة نظرنا فى هذا البحث فإن التأثير الرئيسى بين هذه التأثيرات هو «نسخ الذات» . بعض الجزيئات الكبيرة عندما تترك سابحة فى وسط مجهز جيداً بما يلزم ، تكون لها قدرة مدهشة على أن تبنى بلا عقل نسخا لذاتها وتفرزها مطابقة لنفسها بالضبط و بما يكاد يكون مضبوطا . وحامض دنا هو وسلفه حامض رنا[1] هما من هذه الجزيئات الكبيرة ؛ وهما أساس كل الحياة على هذا الكوكب ، وبالتالى فإنهما تاريخيا شرط مسبق لكل العقول – على الأقل كل العقول التى على هذا الكوكب . وقد ظلت هناك جزيئات كبيرة ناسخة للذات طيلة حوالى بليون سنة قبل ظهور الكائنات الحية البسيطة وحيدة الخلية على الأرض ، وكانت هذه الجزيئات الكبيرة تواصل بلا انقطاع عمليات الطفر ، والنمو بل وحتى ترميم ذاتها ، والتحسن إلى أفضل ،أفضل – مع مزيد ومزيد من نسخ الذات .

وهذه أعمال فذة عجيبة ، ما زالت تتجاوز قدرات أى روبوت موجود . هل يعنى ذلك أن هذه الجزيئات الكبيرة لها عقول مثلنا ؟ بالتأكيد لا . إنها حتى ليست حية – فهى مجرد بلورات ضخمة من وجهة نظر الكيمياء . وهذه الجزيئات العملاقة ماكينات دقيقة الصغر – أى تكنولوجيا «جد مصغرة» لجزيئات «كبيرة» . إنها فى الواقع روبوتات طبيعية .

وقد توصلنا من خلال ميكروسكوب البيولوجيا الجزيئية إلى أن نشهد مولد «العمالة الفعالة» (=Agency) فى أول الجزيئات الكبيرة التى لها درجة من التعقد

(*) دنا حامض دى أوكسى ريبو نيو كليك موجود فى نواة الخلية وهو المكون الأساسى للجينات أو المورثات ورنا هو حامض ريبو نيو كليبك موجود فى نواة الخلية وسيتوبلازمها ودوره مهم فى تكوين البروتينات حسب شفرة دنا. والفيروسات تكون غالبا من رنا المتكاثر يحيط به غلاف بروتينى. وتطوريا يعد رنا سابقا لدنا (المترجم) .

كافية «لأداء الأفعال» بدلا من أن تظل قابعة فحسب مع «تأثيراتها» . ودورها هذا كعامل فعال لم يكتمل نموه مثل دورنا نحن . فهى لا تعرف ما تفعله . ونحن على النقيض كثيراً ما نعرف كل المعرفة ماذا نفعل . إننا فى أحسن أحوالنا – كما فى أسوأها – نحن العوامل الفعالة البشرية ، نستطيع أداء أفعال «قصدية» ، بعد أن نتدبر بوعى الأسباب التى مع ذلك أو ضده . أما الجزيئات الكبيرة ، فهى كعوامل فعالة تختلف عن ذلك؛ وهناك أسباب لما تفعله الجزيئات الكبيرة ، ولكن هذه الجزيئات لا تعى هذه الأسباب . على أن نوعهم هذا من العمالة الفعالة هو الأساس المحتمل الوحيد الذى يمكن أن تنمو منه بذور نوعنا من العمالة الفعالة .

ومع أن الماكينات الجزيئية تنجز أعمالها المثيرة المذهلة ، ومع أن من الواضح أنها ماكينات رائعة التصميم ، إلا أنه يماثل ذلك وضوحاً أنها لا تعقل شيئاً مما تفعله.

هذه الماكينات الجزيئية الصغيرة جد الصغر ولا نتصف بأنها لا شخصية وغير متأملة وأنها روبوتية وبلا عقل ، هذه الماكينات هى الأساس الأوّلى لكل ما فى العالم من عمالة فعالة ، وبالتالى لما فيه من المعنى ومن الوعى . ومن النادر لحقيقة علمية متينة ولا خلافية هكذا أن يكون لها مثل هذه التضمينات القوية لبناء كل ما تلا من الجدل حول أمر خلافى وغامض كالعقول ، وبالتالى هيا بنا نقف وقفة قصيرة لنذكر أنفسنا بهذه التضمينات .

لم يعد هناك بعد أى شك جدى بشأن الأمر التالى : وهو «أننا السلالة المباشرة لهذه الروبوتات الناسخة للذات» . نحن من الثدييات ، والثدييات كلها قد انحدرت من أسلاف من الزواحف ، كانت أسلافها من أسماك ، كانت أسلافها مخلوقات بحرية تكاد تشبه الديدان ، وهذه بدورها انحدرت من كائنات أبسط متعددة الخلايا منذ مئات عديدة من ملايين السنين ، وهذه انحدرت من كائنات وحيدة الخلية ، انحدرت من جزيئات كبيرة ناسخة للذات منذ حوالى ثلاثة بلايين عام . ولا يوجد سوى شجرة عائلة واحدة يمكن أن نجد عليها كل الأشياء الحية التى عاشت على هذا الكوكب – ليس فحسب الحيوانات ، وإنما أيضاً النباتات والطحالب والبكتريا. نحن نتشارك فى سلف مشترك مع كل شمبانزى وكل دودة وكل نصل عشب ، وكل شجرة خشب أحمر . فالجزيئات الكبيرة إذن هى من أسلافنا .

حتى نوضح الأمر بصورة حية فإن جدة جدة ... جدتنا «كانت روبوتا ! ونحن لسنا فحسب منحدرين من هذه الجزيئات الكبيرة الروبوتية وإنما نحن أيضاً نتكوّن منها : كل ما فينا من جزيئات الهيموجلوبين ومن الأجسام المضادة والعصبونات وماكينات رد الفعل المنعكس . كل ما فى جسمنا على كل مستوى للتحليل بدءاً من المستوى الجزيئى فصاعدا (وطبعا بما فى ذلك مخنا) هذا كله يتكون من ماكينات تؤدى فى صمت أبكم مهمة مدهشة تم تصميمها تصميما رائعا .

ونحن ربما قد توقفنا عن الإحساس بروعة الرؤية العلمية للفيروسات والبكتريا وهى مشغولة بلا عقل فى تنفيذ أهدافها التدميرية – تلك الأوتوماتات الصغيرة البشعة وهى تؤدى أفعالها الشريرة . على أنه ينبغى ألا نعتقد أنه سيكون من المريح لنا الظن «بأنها» عناصر غزو أجنبية ، تختلف تماماً عن الأنسجة الأكثر تجانساً التى نتألف منها «نحن» . فنحن مصنوعون من نفس الأنواع من الأوتوماتات التى تغزونا – فلا توجد هالات بشرية خاصة تميز ما لدينا من الأجسام المضادة عن الأنتيجينات(*) (المستضدات) التى تقاتلها ؛ فالأجسام المضادة لدينا تنتمى فحسب إلى نفس النادى الذى هو نحن ، وبالتالى فإنها تحارب فى صفنا . وبلايين العصبونات التى تتجمع معا لتصنع مخنا ، هى خلايا لها نفس نوع الكيان البيولوجى مثل الجراثيم التى تسبب الأمراض المُعدية ، أو خلايا الخميرة التى تتكاثر فى الدن العميق عندما تتخمر الجعة أو فى العجين عندما ينتفخ الخبز .

وكل خلية – أى كل عامل فعال دقيق ممن يستطيع أداء عدد محدود من المهام – هى بلا عقل مثلها فى ذلك مثل الفيروس . هل يمكن أنه لو رُص معا عدد كافى من هذه الأقزام البكماء – وكأنها أفراد بشر صغيرة الحجم – تكون النتيجة شخصا حقيقيا واعيا له عقل حقيقى ؟ حسب العلم الحديث لا توجد أى طريقة أخرى لصنع شخص حقيقى . والآن ، فإنه مما لا ريب فيه أن حقيقة أننا قد انحدرنا من روبوتات لا يترتب عليها بالضرورة أننا نحن أنفسنا روبوتات . وعلى كل ، فإننا أيضاً ننحدر مباشرة من السمك ، ولكننا لسنا بأسماك ؛ ونحن ننحدر مباشرة من البكتريا ، ونحن لسنا بالبكتريا . ولكن ، ما لم يكن هناك بعض عنصر سرى إضافى فينا (وهو ما تعود أصحاب المذهب الثنائى(**) والمذهب الحيوى(***) على اعتقاده) ، فإننا مصنوعون من روبوتات : أو أننا بما يصل إلى نفس الشىء ، يتكون كل واحد منا من مجموعة من تريليونات ماكينات الجزيئات الكبيرة . وهذه كلها تنحدر فى النهاية من الجزيئات الكبيرة الأصلية الناسخة للذات . وهكذا فإن شيئاً مصنوعاً من الروبوتات «يستطيع» أن يظهر وعيا حقيقيا ، حيث أننا نفعل ذلك ، إذا كان هناك من يفعله .

وأنا أدرك أنه بالنسبة لبعض الناس ، فإن هذا كله يبدو أمراً غير محتمل يصيب بالصدمة ، ولكنى أظن أنهم لم يلحظوا كيف أن بدائل ذلك تبعث على اليأس . فالمذهب الثنائى (أى الرأى بأن العقول تتكون من بعض خامة لا فيزيقية غامضة

(*) الأنتيجينات مواد أجنبية عن جسدنا كالجراثيم مثلا ، وتستثير جهاز المناعة ليكوّن أجساما مضادة لمقاومتها (المترجم) .

(**) المذهب الثنائي يقابل الواحدية ، ويفسر العالم بالقول بمبدأين متقابلين كالجسم والعقل أو الشر والخير (المترجم) .

(***) المذهب الحيوى نزعة مثالية ترد كل مظاهر نشاط الكائن الحى إلى قوة حيوية كامنة فيه (المترجم) .

تماماً) هو والمذهب الحيوى (أى الرأى بأن الأشياء الحية تحوى بعض خامة فيزيقية خاصة ولكنها غامضة بما يساوى الغموض فى الثنائية – وهى «اندفاعة الحياة»(*)) هذان المذهبان أصبح مكانهما فى صندوق قمامة التاريخ مع الخيمياء(**) والتنجيم . ولن نجد أى مجال للوقوف والقتال من أجل هذه الأفكار المهجورة ، إلا إذا كنا مستعدين لأن نعلن أن العالم مسطح وأن الشمس عربة نارية تجرها جياد مجنحة – أو بكلمات أخرى إذا كنا نرفض العلم الحديث رفضا كاملا . وإذن ، هيا ننظر أى قصة تلك التى يمكن أن تحكيها لنا المصادر العلمية المحافظة . لعل فكرة أن عقولنا قد تطورت من عقول أبسط ليست على كل حال قصة جد سيئة .

إن أسلافنا من الجزيئات الكبيرة (وهذا بالضبط ما تكونه بدون أى مجاز : فهى أسلافنا) «تشبه» العامل الفعال من بعض الوجوه ، إلا أنها من وجوه أخرى تكون سلبية بما لا يمكن إنكاره ، فهى تطفو عشوائياً فيما حولها ، ويدفع بها إلى هنا وهناك – ويمكنك القول بأنها تترقب الفعل وبنادقها محشوة ولكنها لا تترقبه «بأمل» أو «بتصميم» منها أو عن «قصد» . قد يكون فكها مفتوحا ، ولكنها مثلها مثل الفخ الفولاذى غير ذات عقل .

ما الذى يتغير ؟ لا شيء مفاجئ . إن أسلافنا قبل أن تحصل على العقول تحصل على الأجساد . فالأسلاف تصبح أولا خلايا بسيطة ، أو ذات نواة كاذبة ، وفى النهاية فإن ذوات النواة الكاذبة تدخل بعض الغزاة أو السكان ، ومن ثم فهى تصبح خلايا مركّبة – أو ذات نواة حقيقية . وبحلول ذلك الوقت الذى يقارب زمنه بليون سنة بعد ظهور أول خلايا بسيطة ، فإن أسلافنا أصبحوا بالفعل ماكينات معقدة عجيبة (تتكون من ماكينات مصنوعة من ماكينات) ، ولكنها ما زالت بلا عقل . وهى فى مسارها تظل كما كانت دائماً سلبية وبلا توجه ، ولكنها الآن مجهزة بالكثير من النظم الفرعية المتخصصة ، من أجل استخلاص الطاقة والمادة من بيئتها ومن أجل أن تقوم عند الضرورة بحماية أنفسها وترميمها .

التنظيم المعقد لكل هذه الأجزاء المتسقة لا يشبه كثيراً أن يكون عقلا . وأرسطو يطلق اسما على هذا التنظيم أو على سلالته : فهو يسميه «روحا مغذية» . والروح المغذية ليست شيئاً ؛ فهى مثلا ليست واحدا من تلك النظم الفرعية الميكروسكوبية التى تسبح فيما حولها فى سيتوبلازم الخلية . أنها «مبدأ تنظيمى» ؛ وكما يقول

(*) «اندفاعة الحياة» عند برجسون قوة حيوية أصيلة تنتقل فى الكائنات الحية من جيل إلى جيل وهى مصدر الحياة فى تطورها وشعبها . (المترجم) .

(**) الخيمياء : الكيمياء القديمة التى كان من أهدافها تحويل المعادن الرخيصة كالنحاس إلى معادن ثمينة كالذهب ، واكتشاف أكسير الحياة (المترجم) .

أرسطو فهى تشكُّل وليست مادة . وكل الأشياء الحية – ليس فحسب النباتات والحيوانات وإنما أيضاً الكائنات وحيدة الخلية – كلها لها أجساد تتطلب منظمة لها تنظيم ذاتى وحماية ذاتية يمكن تنشيطها أنشطة تتمايز بالظروف المختلفة . وهذه المنظمات قد صممت تصميما ألمعيا بالانتخاب الطبيعى ، وهى تتكون فى أساسها من كثير من المفاتيح الدقيقة السلبية التى يمكن أن تدار للتشغيل أو للإيقاف بواسطة ظروف تماثلها سلبية ، مما تلاقيه الكائنات الحية فى تجوالها .

ونحن أنفسنا ، مثل كل الحيوانات الأخرى ، لدينا روح مغذية – منظمة ذاتية التنظيم والحماية – تتميز تماماً عن جهازنا العصبى كما أنها أقدم منه : وهى تتكون من جهازنا الأيضى وجهازنا المناعى وأجهزة أخرى معقدة بما يذهل ، وتعمل من أجل الترميم الذاتى والحفاظ صحيا على أجسادنا . وخطوط الاتصال التى تستخدمها هذه الأجهزة القديمة لا تكون من الأعصاب وإنما من الأوعية الدموية . وقبل أن توجد التليفونات والراديوهات بزمن طويل كانت هناك الخدمة البريدية التى تقوم بعملية النقل على نحو يُعتمد عليه وإن كان بطيئاً نوعاً ، فتنقل حزما فيزيقية من المعلومات القيمة فى أرجاء العالم . وكذلك فقبل أن يوجد الجهاز العصبى فى الكائنات الحية بزمن طويل ، كانت الأجساد تعتمد على جهاز بريدى من وعية تكنولوجية منخفضة – وهو جهاز تدوير السوائل داخل الجسم ، وهو جهاز وإن كان بطيئاً نوعاً إلا أنه ينقل بما يُعتمد عليه حزماً قيمة من المعلومات تصل إلى حيث تكون هناك حاجة إليها من أجل أداء عمليات للتحكم والحفاظ على الذات . ونحن نرى سلالة هذه الأجهزة البريدية البدائية فى الحيوانات والنباتات معا . فتيار الدم فى الحيوانات يحمل السلع والنفايات ولكنه أيضاً منذ وقت مبكر وهو الطريق الرئيسى للمعلومات . كذلك فإن حركة السوائل داخل النباتات توفر وسطا بدائيا نسبيا لنقل الإشارات من أحد أجزاء النبات للآخر على أننا نستطيع أن نرى فى الحيوانات تجديداً رئيسياً فى التصميم : تطور الأجهزة العصبية البسيطة – أسلاف الجهاز العصبى اللاإرادى – أجهزة لها القدرة على نقل المعلومات على نحو أسرع وأكثر كفاءة ولكنها ما زالت مكرسة أساساً للأمور الداخلية . فالجهاز العصبى اللاإرادى ليس عقلا بالمرة وإنما هو بالأحرى جهاز للتحكم ، توجهه بأكثر حسب خطوط الروح المغذية فى النبات التى تحافظ على السلامة الأساسية للمنظومة الحية .

إننا نميز بوضوح هذه الأجهزة القديمة عن عقولنا ، ولكن من العجيب أننا كلما نظرنا بدقة أكثر إلى تفاصيل عملياتها زاد ما نجده فيها من شبه بالعقل ! فمفاتيحها الصغيرة تشبه أعضاء الحس البدائية ، والتأثيرات الناتجة عند (تشغيل) و(إيقاف) هذه المفاتيح تشبه الأفعال القصدية . كيف ذلك ؟ إنها تشبهها فى أنها

تأثيرات ناتجة عن نظم تضمين «للمعلومات» وبحث عن «الأهداف» . والأمر و«كأن» هذه الخلايا وهذه التجمعات من الخلايا هى «عوامل فعالة» دقيقة الحجم وبسيطة العقل ، وهى كخدم متخصصة فى أن تقوم بصورة منطقية بتعزيز قضاياها الخاصة القهارية بأن تعمل حسب الأساليب التى يمليها إدراكها للظروف المحيطة . والعالم يعج بكيانات كهذه بمدى يتراوح ابتداء مما هو جزيئى حتى ما هو هائل الحجم، ولا يقتصر على أن يتضمن فقط الأشياء «الطبيعية» مثل النباتات والحيوانات وأجزائها (وأجزاء أجزائها) ، وإنما يتضمن أيضاً الكثير من مصنوعات البشر . وكمثل فإن أجهز الثرموستات هى مثل مألوف لهذه العوامل الفعالة البسيطة الزائفة .

وأنا أسمّى هذه الكيانات من أبسطها إلى أكثرها تعقدا «المنظومات القصدية» ، كما أسمى المنظور الذى تتراءى فيه فعاليتها (زائفة كانت أو أصلية) بأنه «الموقف القصدى» .

اتخاذ الموقف القصدى : الموقف القصدى هو استراتيجية تفسير سلوك كيان ما (كشخص أو حيوان أو ما هو مصنوع أو أيا ما كان) بأن يعامل «وكأنه» عامل فعال عاقل يتحكم فى «اختيار» «فعله» «بالتدبر» فى «معتقداته» و«رغباته» . وهذه المصطلحات الرهيبة الموضوعة بين الأقواس قد مُطت خارج استخدامها العادى إلى ما يسمى عادة «بالسيكولوجية الشعبية» ، أى الخطاب اليومى السيكولوجى الذى نستخدمه لمناقشة الحياة العقلية للرفقة من أفراد البشر . والموقف القصدى هو الموقف أو المنظور الذى نتخذه روتينيا أحدنا إزاء الآخر ، وبالتالى فإن اتخاذ الموقف القصدى إزاء شىء آخر يبدو أن فيه تعمد «لأنسنة» هذا الشىء . كيف يمكن أن يكون ذلك فكرة جيدة فيما يحتمل؟

سأحاول أن أوضح أنه لو تم فعل ذلك بحرص فإن اتخاذ الموقف القصدى لا يكون فقط فكرة جيدة ، وإنما هو أيضاً المفتاح للكشف عن أسرار العقل – كل أنواع العقل . فهذا منهج يستغل أوجه الشبه ليكتشف أوجه الاختلاف – المجموعة الضخمة للاختلافات التى تكدست بين عقول أسلافنا وعقولنا ، وتكدست أيضاً بين عقولنا وعقول رفقتنا فى سكنى هذا الكوكب. والموقف القصدى يجب استخدامه بحذر ، وينبغى علينا أن نمشى فوق حبل مشدود بين استعارة فارغة من جانب وزيف حرفى من الجانب الآخر . وإساءة استخدام الموقف القصدى يمكن أن تضلل الباحث غير المتنبه تضليلاً خطيراً ، ولكنه عند فهمه على الوجه الصحيح ، يمكن أن يوفر منظوراً صحيحاً مثمراً بالنسبة لمجالات عديدة مختلفة ، مبينا ما يكون من وحدة كامنة فى الظواهر ، وموجها انتباهنا إلى التجارب الحاسمة التى يلزم إجراؤها.

الاستراتيجية الأساسية للموقف القصدى هى معاملة الكيان موضع الدراسة كعامل فعال ، من أجل التنبؤ بأفعاله أو حركاته ، وبالتالى تفسيرها بمعنى ما .

والمعالم المتميزة للموقف القصدى يمكن أن نراها على أفضل نحو بأن نوضح تباينها مع موقفين أكثر أساسية أو استراتيجيتين أخريين للتنبؤ وهما : «الموقف الفيزيائى» و «الموقف التصميمى» . والموقف الفيزيائى هو ببساطة المنهج المقنن الشاق للعلوم الفيزيائية ، حيث نستخدم أيا مما نعرفه حول قوانين الفيزياء والتكوين الفيزيقى للأشياء موضع الدراسة لنستنبط تنبؤنا . وعندما أتنبأ بأن قطعة الحجر التى أطلقها من يدى سوف تسقط على الأرض ، فإننى استخدم الموقف الفيزيائى . فأنا لا أضفى على قطعة الحجر معتقدات ولا رغبات ؛ وإنما أضفى عليها الكتلة أو الوزن ، وأعتمد على قانون الجاذبية للوصول إلى تنبئى . وبالنسبة للأشياء التى ليست حية ولا مصنوعة ، يكون الموقف الفيزيائى هو الاستراتيجية الوحيدة المتاحة ، وإن كان يمكن إجراؤها بمستويات مختلفة من التفاصيل ، ابتداء مما هو تحت ذرى ووصولا إلى ما هو فلكى . وتفسير السبب فى أن الماء يفور بالفقاقيع عند غليانه ، وفى ظهور سلاسل الجبال للوجود ، ومن أين تأتى الطاقة الشمسية ، هذه التفسيرات كلها تفسيرات من الموقف الفيزيائى . وكل شىء فيزيقى ، سواء كان مصمَّما أو حيا أو لم يكن كذلك ، يخضع لقوانين الطبيعة ، وبالتالى فإنه يسلك بطرائق يمكن تفسيرها والتنبؤ بها من الموقف الفيزيائى . وإذا كان الشىء الذى أطلقته من يدى هو ساعة منبه أو سمكة ذهبية ، فإننى أصل إلى نفس التنبؤ بالنسبة لمساره لأسفل ، وعلى نفس الأساس . وحتى نموذج الطائرة أو الطائر اللذين قد يتخذا مسارا جد مختلف عند إطلاقهما ، حتى هذين سوف يسلكان بطرائق تخضع لقوانين الفيزياء بكل مقياس وفى كل لحظة .

والساعات المنبهة من حيث أنها أشياء تم تصميمها (بخلاف الصخر) ، تنقاد أيضاً لأسلوب تنبؤ أكثر خيالا – التنبؤ من الموقف التصميمى . والموقف التصميمى فيه طريق مختصر مدهش ، نستخدمه كلنا طول الوقت . لنفرض أن أحدهم قد أعطانى ساعة منبه رقمية جديدة . وصناعة هذا المنبه وطرزه جديدان علىّ تماما ، ولكن فحص أزراره الخارجية ومظهره فحصا سريعا يقنعنى بأنى «إذا» ضغطت أزرارا قليلة لا غير ، سيحدث «إذن» بعد بضع ساعات أن المنبه ستصدر عنه ضجة عالية . ولست أعرف ما سيكونه نوع هذه الضجة ، ولكنها ستكون كافية لأن توقظنى . وليس من اللازم على أن أستنتج القوانين الفيزيائية المحددة التى تفسر هذا النظام الرائع، ولا من اللازم علىّ أن أفكك المنبه لأجزاء أزنها وأقيس ما يوجد هناك من فولتات كهربائية وإنما أنا «افترض» فحسب أن المنبه له تصميم معين – التصميم الذى نطلق عليه الساعة المنبه – وأنه سوف يعمل على وجه صحيح ، كما صُمم له. وأنا مستعد لأن أخاطر مخاطرة كبيرة نوعا بالنسبة لهذا التنبؤ – ولكن ليس

بحياتى ، وإنما بما يتعلق باستيقاظى فى الوقت المناسب للوصول إلى محاضرتى التى حُدد وقتها أو للحاق بالقطار . وتنبؤات الموقف التصميمى فيها مخاطرة أكثر من تنبؤات الموقف الفيزيائى ، وذلك بسبب الفروض الإضافية التى علينا أن نضعها وهى : أن الكيان قد «تم» تصميمه على النحو الذى افترضت أنه يكون عليه ، وأنه سوف يعمل حسب هذا التصميم – أى أنه لن يختل فى عمله . ويحدث أحياناً أن الأشياء المصممة يُساء تصميمها ، ويحدث أحياناً أن تتعطل . ولكن هذا الثمن المتواضع الذى أتحمله من المخاطرة يعوضه بأكثر منه مدى السهولة الهائلة فى التنبؤ . والتنبؤ حسب الموقف التصميمى عندما يمكن تطبيقه يكون منه طريق مختصر منخفض التكلفة وقليل المخاطر ، الأمر الذى يمكننا من أن نتحايل على التطبيق الشاق لمعرفتنا المحدودة بالفيزياء . والحقيقة أننا نخاطر روتينيا بحياتنا فيما يتعلق بتنبؤات الموقف التصميمى: فنحن لا نتردد فى توصيل الأجهزة الكهربائية بالكهرباء وتشغيلها وهى أجهزة يمكن أن تقتلنا لو كان ثمة خطأ فى توصيل أسلاكها .

وتنبؤ الموقف التصميمى يصلح على نحو مدهش للعمل على المصنوعات المصممة جيداً ، ولكنه يصلح أيضاً للعمل على مصنوعات أمنا الطبيعية – أى على الأشياء الحية وأجزائها . وقد حدث منذ زمن طويل قبل أن نفهم فيزياء وكيمياء نمو النبات وتكاثره ، أن كان أسلافنا يقامرون بحياتهم بالمعنى الحرفى للكلمة ، فى اعتمادهم على معرفتهم المؤسسة على الموقف التصميمى بما «يفترض» أن ستفعله البذور عند زرعها . «فإذا» غرزنا بذورا معدودة فى الأرض هكذا فحسب ، فسوف يحدث «إذن» بعد شهور معدودة ، ومع بذل المزيد من جهد يسير نقوم به ، أن سيوجد طعام لنأكله .

قد رأينا فى التو أن تنبؤات الموقف التصميمى فيها مخاطرة عند مقارنتها بتنبؤات الموقف الفيزيائى (والأخيرة تنبؤات آمنة ولكنها مما يصعب استنباطه) ، أما الموقف القصدى فهو حتى أكثر مخاطرة وسرعة . ويمكنك إذا شئت أن تنظر إليه كنويع متفرع من الموقف التصميمى حيث يكون الشىء المصمَّم عامل فعال من نوع سئ . فلنفرض أننا نطبقه على ساعة المنبه . هذا المنبه خادم لى ، وأنا إذا «أمرته» أن يوقظنى ، بأن «أجعله يفهم» وقتا معينا للإيقاظ ، فإنى أستطيع الاعتماد على قدرته الداخلية «لإدراك» متى يحين هذا الوقت ليؤدى بكل إحساس بالواجب الفعل الذى وعد بتأديته . وبمجرد أن يصل إلى «الاعتقاد» بأن وقت فعل الضجيج هو الآن ، فإنه «يدفع» بفضل تعليماتى السابقة لأن يفعل فعله حسب هذه التعليمات ، ولا ريب فى أن ساعة المنبه هى من البساطة بحيث لو تحدثنا بدقة فإن هذه الأنسنة المفعمة بالخيال ليست ضرورية لنفهم السبب فى أن المنبه يفعل ما

يفعله – ولكن دعنا نلاحظ أن هذه هى الطريقة التى قد نشرح بها لطفل كيف يستخدم المنبه : «عليك أن تخبره بالوقت الذى تريده أن يوقظك عنده ، وهو سيذكر أن يفعل ذلك بأن يحدث ضجة عالية» .

يكون اتخاذ الموقف القصدى أكثر فائدة – بل يكاد يكون إجباريا – إذا كانت الأداة المصنوعة موضع الدراسة أكثر تعقدا عن المنبه بدرجة كبيرة . ومثلى المفضل هو الكمبيوتر لاعب الشطرنج . هناك مئات من برامج الكمبيوتر المختلفة يمكن أن تحول الكمبيوتر إلى لاعب شطرنج ، سواء كان الكمبيوتر من أصغر الأنواع ، أو من نوع الكمبيوتر الفائق . ومع كل أوجه الاختلاف فى هذه الكمبيوترات على المستوى الفيزيقى وعلى مستوى التصميم إلا أنها كلها تخضع بإتقان لنفس الاستراتيجية البسيطة من التفسير : فما علينا إلا أن نفكر فيها كعوامل فعالة عاقلة «تريد» أن تكسب ، و«تعرف» قواعد ومبادئ الشطرنج وأوضاع قطعة على اللوحة . وهكذا فإن مشكلتنا من حيث التنبؤ بسلوكها وتفسيره تصبح فى التو أسهل كثيراً مما لو حاولنا أن نستخدم الموقف الفيزيائى أو التصميمى . وما علينا فى كل لحظة فى مباراة الشطرنج إلا أن ننظر إلى لوحة الشطرنج ونضع قائمة بكل التحركات المشروعة المتاحة للكمبيوتر عندما يحين دوره للعب (ستكون هناك عادة عدة عشرات من التحركات المطروحة) . لماذا نحدد أنفسنا بالتحركات المشروعة ؟ لأننا نفكر فى أن الكمبيوتر يريد لعب الشطرنج ليفوز وأنه يعرف أنه يجب أن يؤدى فحسب تحركات مشروعة حتى يكسب ، وبالتالى فحيث أنه عاقل فإنه سيحدد نفسه بهذه التحركات. والآن هيا نرتب الحركات المشروعة ابتداء من الأفضل (الأحكم والأكثر معقولية) حتى الأسوأ (أكثرها حماقة وهزيمة للذات) ثم نصنع تنبؤنا : الكمبيوتر سوف يؤدى أحسن حركة . ربما لا نكون جد واثقين مما «تكونه» أحسن حركة (الكمبيوتر قد «يقدر» الموقف أحسن مما نفعل !) ، ولكننا غالبا يمكننا دائماً أن نستبعد كل الحركات المطروحة ما عدا أربع حركات أو خمس ، الأمر الذى ما زال يعطينا فاعلية هائلة فى التنبؤ .

أحياناً حين يجد الكمبيوتر نفسه فى مأزق صعب ، وليس أمامه سوى أداء حركة واحدة لا انتحارية (حركة «إجبارية») ، فإنك تستطيع التنبؤ بحركته بثقة فائقة. ليس هناك أى قانون فيزيائى يجبر على هذه الحركة وليس هناك شىء فى التصميم الخاص للكمبيوتر يجبره عليها . فالحركة إجبارية نتيجة «أسباب» قوية قوة طاغية بما يؤدى لتنفيذ هذه الحركة وليس أى حركة أخرى . وأى لاعب شطرنج مهما كان ما يكوّنه من المواد الفيزيقية ، سوف ينفذ هذه الحركة . بل إن الشبح أو الملاك سوف ينفذها ! ونحن نصل إلى تنبؤنا باستخدام الموقف القصدى على أساس

افتراض جرئ بأنه «مهما كان» تصميم برنامج الكمبيوتر ، فإنه قد صمم تصميماً جيداً بما يكفى لأن يجعله مدفوعا بمثل هذا التفكير الجيد . ونحن نتنبأ بسلوكه «كما» لو كان عاملاً فعالاً عاقلاً .

لا شك أن الموقف القصدى طريق مختصر مفيد فى مثل هذه الحالة ، ولكن إلى أى حد ينبغى أن نأخذه مأخذاً جدياً ؟ ما الذى يهم الكمبيوتر حقا فى أن يكسب أو يخسر ؟ لماذا نقول أن ساعة المنبه «ترغب» فى إطاعة سيدها ؟ فى استطاعتنا أن نستخدم هذا التباين بين الأهداف الطبيعية والمصنوعة لنزيد من إدراكنا لحقيقة أن كل الأهداف الحقيقية تنبع فى النهاية من مأزق لشيء حى حام لذاته . إلا أنه يجب أن نتبين أيضاً أن الموقف القصدى «يصلح للعمل» (عندما يصلح له) سواء كانت الأهداف المضفاة ، أو لم تكن ، أهدافا حقيقية أو طبيعية أو «مدركة حقا» بواسطة العامل الفعال ، وهذا التسامح أمر حاسم لفهم طريقة يستطاع بها أول كل شيء إرساء البحث الحقيقى عن الهدف ، هل الجزئ الكبير يريد «حقا» أن ينسخ ذاته ؟ الموقف القصدى يفسر لنا ما يحدث ، بصرف النظر عن طريقة إجابتنا عن هذا السؤال . دعنا ننظر أمر كائن حى بسيط – مثلاً الدودة المستورقة(*) أو الأميبا – وأى منهما يتحرك لا عشوائياً عبر قاع طبق فى المعمل ، وهو دائماً يتجه إلى طرف الطبق الغنى بالمواد الغذائية ، أو بعيداً عن الطرف السام . إن هذا الكائن الحى يبحث هنا عن الأمر الطيب (الخير) أو يتجنب الأمر السئ (الشر) – أى ما هو خير أو شر بالنسبة «له هو» ، وليس بالنسبة لفرد من البشر يستخدم أداة مصنوعة . والبحث عما هو خير للذات هو أحد الملامح الأساسية لأى عامل فعال عاقل ؛ ولكن هل هذه الكائنات الحية البسيطة كائنات باحثة أو أنها فحسب «تبحث» ؟ أننا لسنا فى حاجة للإجابة عن هذا السؤال . فالكائن الحى هنا هو فى كلا الحالين منظومة قصدية يمكن التنبؤ بأمرها .

وهذه طريقة أخرى لتوضيح فكرة سقراط فى حوار «مينو» عندما تساءل عما إذا كان أى شخص يرغب قط فى الشر وهو عارف بذلك . إننا نحن المنظومات القصدية نرغب بالفعل فى الشر أحياناً ، وذلك من خلال خطأ فى الفهم أو خطأ فى المعلومات ، أو لمحض الجنون ، ولكن الرغبة فيما يُعد خيراً هى جزء لا يتجزأ من العقلانية . وهذه العلاقة الأساسية بين الخير والبحث عن الخير هى الأمر الذى يُضفَى – أو بالأحرى الأمر المفروض إجباريا – بواسطة الانتخاب الطبيعى لأسلافنا : فهناك الذين نالهم سوء الحظ فتم تصميمهم وراثيا بحيث يبحثون عما هو شر لهم ،

(*) دودة صغيرة مسطحة لها شكل ورقة النبات . (المترجم) .

وهؤلاء لا يتركون على المدى الطويل أى سلالة لهم . وليس من المصادفة أن منتجات الانتخاب الطبيعى «تبحث» عما «تعتبره» خيرا .

وحتى أبسط الكائنات الحية ، إذا كان عليها أن تفضل ما هو خير لها ، فإنها تحتاج لبعض أعضاء حسية أو قوى للتمييز – بعض المفاتيح البسيطة التى تصح فى حالة «تشغيل» فى وجود الخير وفى حالة «إيقاف» فى غيابه – وهذه المفتيح أو «محولات الطاقة» يجب أن تتحد فى استجابة جسدية صحيحة . وهذا المطلب هو مولد «الوظيفة» . إن الصخرة لا يمكنها أن تؤدى أداء وظيفيا مختلا ، لأنها لم تجهز تجهيزا حسنا ولا سيئًا لدعم أى خير ، وعندما نقرر أن نفسر أحد الكيانات من خلال الموقف القصدى ، يكون الأمر وكأننا نضع أنفسنا فى دور الوصى عليه ، ونسأل أنفسنا بالفعل : لو كنا «نحن» فى حالة هذا الكائن الحى ، ماذا سنفعل ؟ ونحن هنا نكشف عن الأنسنة الكامنة فى الأساس من الموقف القصدى : إننا نعامل كل المنظومات القصدية وكأنها تشبهنا تمامًا – وبالطبع فإنها ليست كذلك .

هل هذا إذن سوء تطبيق لمنظورنا نحن ، المنظور الذى نتشارك فيه نحن «أصحاب العقول» ؟ ليس بالضرورة . ومن حيث نقطة الأفضلية فى التاريخ التطورى نجد أن ما حدث هو كالتالى : تطورت الكائنات الحية تدريجيا عبر بلايين السنين ، وهى تحشد ماكينات يزداد دائمًا تعدد جوانبها ، صممت لتعزز من وجوه الخير لها ، تلك الوجوه التى تتزايد دائمًا فى تعقدها واتساقها . وفى النهاية ، مع ما حدث لنوعنا من تطور فى اللغة ، ومع شتى أنواع التفكير التى تتيحها اللغة ، فقد انبثقت لدينا القدرة على أن نتساءل التساؤلات التى بدأنا بها هذا الكتاب – تساؤلات عن عقول الكيانات الأخرى . وهذه التساؤلات عندما تساءلها أسلافنا بسذاجة أدت إلى الحياتية(*) Animism ، وهى فكرة أن كل شىء متحرك له عقل أو روح (باللاتينية Anima) . وبدأنا نسأل أنفسنا ليس فحسب ما إذا كان النمر يريد أن يأكلنا – وهذا أمر يحتمل أنه يريده – ولكننا نسأل أيضًا لماذا تريد الأنهار الوصول إلى البحار ، وماذا تريد السحب منا مقابل المطر الذى طلبناه منها . وكلما زدنا تعقدا – وهذا تطور تاريخى حديث جدًا وليس مما يعد أمرًا متميزًا فى آفاق الزمان التطورى الفسيحة – فإننا بالتدريج نلغى الموقف القصدى بالنسبة لما نسميه الآن بالطبيعة «اللاحياتية» ، ونحتفظ به بالنسبة للأشياء الأكثر شبها بنا : الحيوانات أساسًا ، بل والنباتات أيضًا فى ظروف كثيرة . ونحن ما زلنا «نحتال على» الزهور لتزهر قبل الأوان وذلك بأن «نخدعها» بدفء وضوء من ربيع صناعى ، كما «نشجع» الخضروات على غرس جذورها لمسافة أطول بأن نحرمها من الماء الذى تحتاجه أشد الحاجة . وهذه الطريقة

(*) الحياتية فى الأنثروبولوجيا هى اعتقاد البدائيين أن كل ما يتحرك أو كل ما له تأثير ، تكون فيه حياة أو روح (المترجم) .

فى التفكير بشأن النباتات ليست فحسب طريقة طبيعية وغير ضارة ولكنها أيضاً وسيلة لمساعدتنا إيجابيا على الفهم كما أن لها فعاليتها المهمة فى الاكتشافات . عندما يكتشف البيولوجيون أن أحد النباتات عنده عضو بدائى للتمييز ، فإنهم يسألون أنفسهم فى التو لأى غرض يكون هذا العضو – ما هو المشروع التائه عند هذا النبات والذى يتطلب للنبات أن يحوز معلومات من بيئته عن هذا الموضوع ؟ وكثيراً جداً ما تكون الإجابة اكتشافا علميا مهما .

«المنظومات القصدية» هى حسب التعريف كل تلك الكيانات ، وكلها وحدها، التى يكون سلوكها قابلاً للتنبؤ / قابلا للتفسير من خلال الموقف القصدى . ومن المنظومات القصدية الجزيئات الكبيرة الناسخة لذاتها ، وأجهزة الثرموستات ، والأميبا ، والنبات ، والجرذان ، والخفافيش ، والبشر ، والكمبيوترات لاعبة الشطرنج كلها منظومات قصدية – وإن كان بعضها مثيراً للاهتمام بأكثر جداً من الآخرين . وحيث أن الفكرة فى الموقف القصدى هى أن نعامل أحد الكيانات كعامل فعال حتى نتنبأ بأفعاله ، فإن علينا أن نفترض أنه عامل فعال حاذق ، ذلك أن العامل الفعال المغفل قد يقوم بأى عمل غبى . وهذه الوثبة الجسور التى تفترض أن العامل الفعال لا يصنع إلا حركات حاذقة (مع ما يفترض من منظوره المحدود) ، هذه الوثبة هى ما يعطينا الفعالية فى صنع التنبؤات . ونحن نوصف هذا المنظور المحدود بأن نضفى على العامل الفعال معتقدات ورغبات «معينة» على أساس إدراكه للموقف وأهدافه أو حاجاته . وحيث أن فعاليتنا التنبؤية فى هذا التدريب تعتمد اعتمادا حرجا على هذه الخاصية – حيث أنها حساسة للطريقة المهنية التى نعبّر بها نحن المنظرون عن هذه المعتقدات والرغبات ؛ أو طريقة تمثيل هذه المعتقدات والرغبات بواسطة المنظومة القصدية موضع البحث ، فإنى أسمى هذه المنظومات بأنها منظومات «قصدية» . فهى تظهر ما يسميه الفلاسفة بأنه «القصدانية» .

و«القصدانية» بهذا المعنى الفلسفى الخاص ، مفهوم خلافى جداً ، وكثيراً ما يحدث روتينيا أن يساء فهمه ويساء استخدامه من غير الفلاسفة ، بحيث أجد أنه يجب على أن أتوقف لأهاجم هذا التعريف لها . لسوء الحظ ، فإن مصطلح «القصدانية» الفلسفى له ، مع ما يحدث من اتصال بين العلوم المتداخلة ، صديقان مزيفان – كلمتان طيبتان تماماً يسهل الخلط بينهما وبين هذا المصطلح ، وهما حقا على علاقة به تعد وثيقة نوعاً . والكلمة الأولى مصطلح عادى ، والثانية كلمة تقنية (سوف أؤجل تقديمها زمناً قصيراً) . إننا كثيراً ما نناقش فى حديثنا العادى إن كان ما فعله أحدهم قد حدث عن قصد أم لا . فعندما يصطدم سائق بدعامة جسر ، هل كان ينتحر عن قصد ، أم أنه تغلب عليه النوم ؟ وعندما ناديت فى التو رجل الشرطة

قائلاً له «أبى» هل كان ذلك عن قصد أو هو زلة لسان ؟ ونحن هنا نسأل عن القصدانية بالنسبة للفعلين ، أليس كذلك ؟ نعم ، بالمعنى العادى ؛ ولا ، بالمعنى الفلسفى .

القصدانية بالمعنى الفلسفى هى فحسب «ما حولية» aboutness . والشىء يظهر قصدانية إذا كانت كفاءته بطريقة ما متعلقة «حول» شأن آخر . ويمكننا كبديل لذلك أن نقول أن الشىء الذى يظهر قصدانية يحوى «تمثلا» representation لشىء آخر – ولكنى أرى أن هذا قول أقل كشفاً وأكثر إشكالية . هل القفل يحوى تمثلا للمفتاح الذى يفتحه ؟ والقفل والمفتاح يُظهران أكثر الأشكال البدائية من القصدانية ؛ وكذلك أيضاً مستقبلات المواد شبه الأفيونية فى خلايا المخ – المستقبلات التى صممت لتتقبل الجزيئات الأندروفينية(*) التى ظلت الطبيعة تداوم على توفيرها داخل المخ طيلة ملايين السنين . وكلاهما ، المستقبلات والأقفال ، يمكن خداعه ، أى فتحه بواسطة أحد المحتالين . وجزيئات المورفين مفاتيح هيكلية اصطناعية شُكلت حديثا لتفتح هى أيضاً أبواب المستقبلات شبه الأفيونية (الحقيقة أن اكتشاف هذه المستقبلات فائقة التخصص هو الذى ألهم بإجراء الأبحاث التى أدت إلى اكتشاف الأندروفينات ، وهى مواد القضاء على الألم الخاصة بالمخ نفسه . على أنه كما استدل الباحثون ، لابد وأنه يوجد بالفعل فى المخ شىء ما بحيث أن هذه المستقبلات المتخصصة تكون متعلقة «حوله» فى المقام الأول) . وعلاقة القفل – المفتاح التى بهذا النوع من «الماحولية» البدائية هى العنصر الأساسى للتصميم الذى شكلت منه الطبيعة الأنواع الأرقى من المنظومات الفرعية التى ربما تستحق بأكثر أن تسمى بالمنظومات التمثلية ، وبالتالى سيكون علينا فى كل حال أن نحلل «الماحولية» المتعلقة بهذه التمثلات بلغة من (الشبه ؟) بماحولية الأقفال والمفاتيح . ونحن نستطيع أن نوسع من هذه النقطة لنقول أن الشكل الحالى للولب المصنوع من معدنين فى جهاز الثرموستات هو تمثل لدرجة حرارة الحجرة الحالية ، وأن وضع رافعة الثرموستات التى يمكن تغيير ضبطها هو تمثل لدرجة الحرارة المرغوبة للغرفة ، ولكننا نستطيع أيضاً بما يساوى ذلك تماماً أن ننكر أن هذه الأمور هى تمثلات بالمعنى الصحيح للكلام ، إلا أنها أمور تتضمن بالفعل معلومات «حول» درجة حرارة الغرفة ، وهى بفضل ما تتضمنه هكذا تساهم فى كفاءة منظومة قصدية بسيطة .

لماذا يسمى الفلاسفة الماحولية بأنها «قصدانية» ؟ إن هذا كله يرجع وراء إلى فلاسفة العصور الوسطى الذين صاغوا المصطلح ، عندما لاحظوا التشابه بين مش هذه

(*) المواد الأندروفينية مواد طبيعية يفرزها المخ لتسكين الألم ومفعولها يشبه مادة المورفين الصناعية . (المترجم) .

الظواهر وبين فعل تسديد أحد الأسهم لشيء ما . ويمكننا أن نقول أن الظواهر القصدية مجهزة بأسهم مجازية تسدد إلى شيء أو آخر – إلى أى مما تدور الظواهر حوله أو تشير إليه أو تلمح عنه . ولكن الكثير من الظواهر التى تظهر هذا النوع من الحد الأدنى للقصدانية هى طبعا ظواهر لا تفعل شيئًا «عن قصد» ، بمعنى المصطلح فى الحياة اليومية . إن الحالات الإدراكية ، والحالات الإنفعالية ، وأحوال الذاكرة كلها مثلا تُظهر ماحولية بدون أن تكون بالضرورة قصدية بالمعنى المعتاد للكلمة ؛ فهى قد تكون بصورة كلية استجابات لا إرادية أو أوتوماتيكية لأحد الأشياء أو الآخر. فليس هناك أى شيء قصدى فيما يتعلق بإدراكنا لجواد ما عندما يلوح للنظر ، ولكن حالتنا الإدراكية هنا تظهر ماحولية من نوع خاص جداً : فنحن ندركه على أنه جواد. ولوم أنك أسأت إدراكه «على أنه» وعل أو رجل يركب دراجة بخارية ، فإن حالتك الإدراكية يكون فيها ماحولية من نوع مختلف . فهى قد سددت سهمها على نحو مختلف تماماً – سددته إلى شيء غير موجود فى الحقيقة ، ولكنه مع ذلك محدد تماماً : إما الوعل الذى لا وجود قط ، أو راكب الدراجة البخارية الوهمى . وهناك اختلاف سيكولوجى كبير بين أن نظن خطأ أننا فى حضرة وعل وأن نظن خطأ أننا فى حضرة رجل يركب دراجة بخارية ، وهو اختلاف له نتائج يمكن التنبؤ بها . وقد لاحظ منظرو العصور الوسطى أن سهم القصدانية يمكن هكذا أن يسدد إلى لا شيء وإن كان مع ذلك يتم تسديده بطريقة معينة إلى حد ما. وقد سموا موضوع التفكير سواء كان حقيقياً أم لم يكن بأنه «الموضوع القصدى» .

حتى نفكر حول شيء ما ، يجب أن تكون لدينا طريقة للتفكير حوله – طريقة واحدة من بين طرائق كثيرة ممكنة . وأى منظومة قصدية هى فى حالة اعتماد على طرائقها المعينة فى التفكير حول شيء – الإدراك ، والتقصى عن ، والتعرف على ، والخوف من ، والتذكر – لأى مما تدور «أفكار» المنظومة حوله . وهذا الاعتماد هو ما يخلق كل الفرص للبلبلة ، عمليا ونظريا معا . ومن الوجهة العملية فإن أحسن سبيل لبلبلة منظومة قصدية معينة هى استغلال خطأ ما فى طريقتها (أو طرائقها) فى الإدراك أو التفكير حول أى مما تحتاج للتفكير حوله . والطبيعة قد استكشفت تنوعات لا حصر لها بالنسبة لهذا المبحث ، حيث أن إحداث بلبلة فى المنظومات القصدية الأخرى هو هدف رئيسى فى حياة معظم المنظومات القصدية . وعلى كل ، فإن إحدى الرغبات الرئيسية فى أى منظومة قصدية حية هى الرغبة فى الطعام اللازم ليوفر الوقود لعملية النمو والترميم الذاتى والتكاثر ، وبالتالى فإن كل كائن حى يلزم له أن يميز الطعام (المادة الطيبة) عن سائر العالم . ويتبع ذلك أن توجد رغبة أساسية أخرى هى تجنب أن تصبح المنظومة طعاما لمنظومة قصدية أخرى . وهكذا فإن هناك

خدعا استراتيجية كالتمويه والتقليد والتسلل وغير ذلك من خدع لا حصر لها تضع صانعى أقفال الطبيعة موضع الاختبار ، وتستثير تطوير طرائق ذات فعالية تتزايد أبدا من أجل تمييز أحد الأشياء عن الآخر ومتابعة مسار ذلك . ولكن ليست هناك طريقة تكون محكمة إحكاماً كاملاً . ولا يوجد فعل «أخذ» دون احتمال «للخطأ» . وهذا هو السبب فى أنه من المهم جداً بالنسبة لنا كمنظرين أن نكون قادرين على التعرف على وتمييز مختلف أنواع الأخذ (والخطأ) التى يمكن أن تحدث فى المنظومات القصدية . وحتى نفهم الطريقة الفعلية التى تقوم بها إحدى المنظومات «بالأخذ» فى ظروفها ، يجب أن يكون لدينا صورة مضبوطة لاعتمادها على قدراتها المعينة لتمييز بين الأشياء – طريقتها فى «التفكير حول» الأشياء .

على أننا لسوء الحظ ، نميل كمنظرين إلى المبالغة فى فعل ذلك ، إذ نعتبر أن قدرتنا «نحن» الخاصة ، تلك القدرة غير المحدودة وشبه الكاملة على تمييز أحد الأشياء عن الآخر فى أفكارنا (وذلك بفضل قدرتنا على استخدام اللغة) ، نعتبر أن قدرتنا هذه وكأنها العلامة المميزة لكل القصدانية الحقيقية ، وكل الماحولية الجديرة باسمها . وكمثل ، فعندما ينقذف لسان الضفدعة خارجا منها ليمسك بأى شىء يطير فيما حولها ، فإن الضفدعة قد ترتكب خطأ – فقد تبتلع إحدى كريات التحميل (بلية) التى ألقاها طفل عابث ، أو تبتلع طعم صياد سمك مربوط بخيط من شعيرة واحدة ، أو أى شىء شاذ لا يؤكل . والضفدعة هنا قد ارتكبت خطأ ، ولكن أى خطأ (أو أخطاء) قد ارتكبته الضفدعة «بالضبط» ؟ما الذى كانت الضفدعة «تعتقد» أنها ستمسك به ؟ أهو ذبابة ؟ طعام يحمله الهواء ؟ شىء متحرك محدب قاتم ؟ نحن الذين نستخدم اللغات يمكننا أن نستنتج ما لا نهاية له من تمييزات رهيفة للمحتوى المطروح لفكر الضفدعة ، بينما هناك فرض لم يختبر ، وهو أننا قبل أن نستطيع إضفاء أى قصدانية «حقيقية» على الضفدعة ، علينا أن نضيّق من محتوى أحوال وأفعال الضفدعة بنفس الدقة التى نستطيع استخدامها (من حيث المبدأ) عندما ننظر أمر الأفكار البشرية ومحتواها المفترض .

ظل هذا الأمر مصدراً رئيسياً للبلبلة النظرية ، وحتى تزداد الأمور سوءاً فإن هناك مصطلح تقنى من المنطق فى متناول اليد يشير بالضبط إلى هذه القدرة للّغة على أن تؤدى ما لا نهاية له من تمييزات دقيقة : إنه مصطلح «التكثيفانية» . والتكثيفانية ملمح من ملامح اللغات ، وليس لها تطبيق مباشر لأى نوع آخر من منظومات التمثل (الصور، الخرائط، الأشكال، «صور البحث»، ... «العقول») . وحسب الاستخدام المقنن بين المناطقة ، فإن الكلمات أو الرموز فى إحدى اللغات يمكن تقسيمها إلى الكلمات المنطقية أو الوظيفية («إذا» ، «و» ، «أو» ، «ليس» ، «كل»،

«بعض»،...) و «الحدود» أو «المحمولات» ، وهذه يمكنها أن تتنوع بمثل تنوع موضوع النقاش («أحمر» ، «طويل» ، «الجد» ، «أوكسجين» ، مؤلف سونيتات(*) من الدرجة الثانية» ، ...) . وكل حد أو محمول له معنى فى اللغة يكون له «امتداد» – أى الشىء أو مجموعة الأشياء التى يشير إليها الحد – كما أن له «تكثيف» – أى الطريقة المعينة التى يتم بها تمييز أو تحديد هذا الشىء أو مجموعة الأشياء . إن «والد شيلزى كلينتون» ، و«رئيس الولايات المتحدة فى ١٩٩٥» عبارتان تطلقان على نفس الشىء ذاته – بيل كلينتون – وبالتالى فإن لهما نفس الامتداد ، ولكنهما توجهان إلى هذا الكيان المشترك بطريقتين مختلفتين ، وبالتالى فإن لهما تكثيفات مختلفة . ومصطلح «المثلث متساوى الأضلاع» يميز بالضبط نفس منظومة الأشياء مثل مصطلح «المثلث متساوى الزوايا» ، وبالتالى فإن هذين المصطلحين لهما نفس الامتداد ، ولكن من الواضح أنهما لا يعنيان نفس الشىء : فأحدهما يدور «حول» تساوى أضلاع المثلث والآخر يدور «حول» تساوى الزوايا . وبالتالى فإن التكثيف يتباين مع الامتداد ، ويعنى تماماً «المعنى» . ولكن أليس هذا هو ما تعنيه أيضاً «القصدانية» ؟

يلاحظ المناطقة أننا لأسباب كثيرة يمكننا أن نتجاهل الاختلاف بين «تكثيفات» الحدود وأن نكتفى بمتابعة «الامتدادات» . وعلى كل فإن الوردة ، أيّا ما كان لها من أسماء أخرى ، سوف تظل حلوة الرائحة ، وبالتالى ، إذا كانت الورود هى موضوعنا ، فإن الطرائق الكثيرة كثرة لا نهاية لها للوصول بصنف الورود إلى النقاش ينبغى أن نكون متكافئة من وجهة نظر المنطق . وحيث أن الماء هو يدر أ ، فإن أى شىء يقال بحق عن الماء باستخدام حد «الماء» سيقال بنفس القدر من الحق إذا أحللنا حد يدر أ مكان «الماء» – حتى وإن كان هذان الحدان يختلفان اختلافاً رهيفا فى المعنى أو التكثيف . وهذا النوع من الحرية يصبح بالذات واضحا ومفيدا فى بعض مجالات البحث مثل الرياضيات ، حيث يمكننا دائماً أن نستفيد من ممارسة استبدال الحدود المتساوية ، فنستبدل ١٦ بـ $٤^{٢}$ أو العكس ، ذلك أن هذين الحدين المختلفين يشيران إلى نفس العدد الواحد . وحرية الاستبدال فى السياقات اللغوية تسمى تسمية ملائمة لها هى «شفافية المرجعية» : فيمكننا أن نرى بالفعل مباشرة من خلال الحدود ، الأشياء التى تشير لها هذه الحدود . ولكن إذا كان الموضوع ليس عن الورود وإنما هو عن «التفكير حول الورود» أو «الحديث حول (التفكير حول) الورود» ، فإن اختلاف التكثيف هنا يمكن أن يكون مهما . وبالتالى ، فحيثما كان الموضوع عن المنظومات القصدية ومعتقداتها ورغباتها ، فإن

(*) السونيتة قصيدة إنجليزية من أربعة عشر بيتا . (المترجم) .

اللغة التى يستخدمها المنظّر تكون حساسة للتكثيف. وسوف يقول أحد المناطقة أن حديثا كهذا يظهر «عتامة مرجعية» ، إنه ليس شفافا ؛ فالحدود نفسها تعترض الطريق وتتداخل مع الموضوع بطرائق رهيفة تثير البلبلة .

حتى نعرف مدى الأهمية الفعلية لعتامة المرجعية عندما نتخذ الموقف القصدى، دعنا ننظر أمر قضية جذرية للموقف القصدى وهو يعمل فعله ، مطبّقا على فرد من البشر . ونحن نفعل ذلك كل يوم دون جهد ، ونادراً ما نعبّر بوضوح عما يتضمنه الأمر ، ولكن هاك مثل مأخوذ من مقال فلسفى حديث – مثل يجرى على نحو غريب نوعا ولكنه مفيد بما فيه من تفصيل فوق المعتاد : أراد بروتوس أن يقتل قيصر. وكان بروتوس يعتقد أن قيصر رجل فان عادى ، ومن هنا فإن طعنه (الذى نعنى به غرز سكين فى قلبه) هو أحد السبل لقتله . وكان بروتوس يعتقد أنه يستطيع أن يطعن قيصر ، ذلك أنه يذكر أن لديه سكين وهو قد رأى أن قيصر يقف بجواره فى الساحة إلى اليسار منه . وبالتالى فإن بروتوس يتحرك فيه الدافع لطعن الرجل الذى يقف إلى يساره . وهو قد فعل ذلك ، وبالتالى فقد قتل قيصر .

نلاحظ أن الحد «قيصر» يلعب خفية دوراً مزدوجاً خطيراً فى هذا الشرح – وليس فحسب بالطريقة المعتادة الشفافة لتمييز أحد الرجال ، قيصر الرجل الذى يرتدى رداءه الرومانى واقفا فى الساحة ، وإنما تميز الرجل «بالطريقة التى يميزه بها بروتوس نفسه» . وبروتوس لا يكفيه أن يرى قيصر واقفا بجواره ؛ وإنما عليه أن يرى أنه «هو» قيصر ، الرجل الذى يريد قتله . ولو أن بروتوس أخطأ رؤية قيصر لرجل الذى إلى يساره على أنه كاسيوس ، فإنه إذن لن يحاول أن يقتله : فما كان لتتحرك فيه الدافع ، كما يقول المؤلفون ، لطعن الرجل الواقف إلى يساره ، حيث نه لن يستدعى الصلة المهمة التى فى عقله – الرابطة التى تطابق الرجل الذى إلى يساره مع هدفه .

هدف إحكام القضية المضلل :

حيثما قام عامل فعال بالفعل ، فإن فعله يكون على أساس فهم معين للظروف – أو سوء فهم معين لها ، والتفسيرات والتنبؤات القصدية تعتمد على الاستحواذ على هذا الفهم . وحتى نتنبأ بفعل لمنظومة قصدية ، علينا أن نعرف الأشياء التى تدور حولها معتقدات ورغبات العامل الفعال ، «ولذلك» علينا أن نعرف بصورة تقريبية على الأقل ، «كيف» تكون هذه المعتقدات والرغبات حول تلك الأشياء ، وذلك حتى يمكننا القول بما إذا كانت العلاقات المهمة قد تم استنتاجها أو سوف تستنتج.

ولكن دعنا نلاحظ أنى قلت أننا حينما نتخذ الموقف القصدى فإن علينا أن نعرف «بصورة تقريبية على الأقل» ، كيف يميز العامل الفعال الأشياء التى تهمه. والإخفاق فى ملاحظة ذلك يكون مصدراً رئيسياً للبلبلة . ونحن على نحو نمطى لا

نحتاج لأن نعرف «بالضبط» الطريقة التى يفهم بها العامل الفعال مهمته . فالموقف القصدى يستطيع عادة أن يتحمل قدراً كبيراً من عدم الإحكام ، وهذه نعمة ، حيث أن مهمة التعبير «بالضبط» عن طريقة فهم العامل الفعال لمهمته ، هى أمر يساء فهمه ، إنها نوع من تدريب بلا هدف مثله فى ذلك مثل قراءة قصائد فى كتاب باستخدام المجهر . وإذا كان العامل الفعال موضع الدراسة لا يفهم ظروفه بمساعدة من لغة قادرة على القيام بتمييزات معينة ، فإن ما للغتنا من القدرة الفائقة على التحليل لا يمكن تسخيرها مباشرة فى مهمة «التعبير» عن الأفكار المعينة لهذا العامل الفعال أو طرائق تفكيره أو أنواع حساسيته . (على أن اللغة يمكن استخدامها بطريقة غير مباشرة «لتوصيف» تلك الخصائص بأى تفصيل يتطلبه السياق النظرى) .

كثيراً ما تضيع هذه النقطة وسط الضباب الذى تثيره محاجة فيها إقناع زائف وتجرى على النحو التالى . هل الكلاب (مثلا) تفكر ؟ إذا كانت تفكر ، فإنها بالطبع يجب أن تفكر أفكاراً معينة . والفكرة لا يمكن أن توجد بدون أن تكون فكرة ما معينة أو الأخرى ، أليس كذلك ؟ ولكن الفكرة المعينة يجب أن تتألف من مفاهيم معينة ، فأنت لا تستطيع أن تفكر بفكرة أن :

«طبقى مملوء باللحم البقرى» .

إلا إذا كان لديك مفاهيم عن «الطبق» وعن «اللحم البقرى» ، وحتى تمتلك هذه المفاهيم فإن عليك أن تمتلك حشدا من مفاهيم أخرى (دلو، صحن، بقرة، لحم، ...) ، حيث أن هذه الفكرة المعينة يمكن بسهولة تمييزها (بواسطتنا) عن فكرة أخرى هى :

«الدلو مملوء باللحم البقرى»

كما يسهل تمييزها عن فكرة أن

«صحنى مملوء بكبد العجول»

دع عنك أن نقول أنها سهلة التمييز عن فكرة أن

«المادة الحمراء اللذيذة المذاق الموجودة فى هذا الشىء الذى آكل منه عادة ليست هى المادة المعتادة الجافة التى يطعموننى بها» .

وهكذا دواليك ، وهلم جرا إلى الأبد . ما هى بالضبط الفكرة أو الأفكار التى يفكر بها الكلب ؟

كيف يمكننا أن نعبّر بالضبط – بالإنجليزية مثلاً – عن الفكرة التى يفكر بها

الكلب ؟ وإذا كان هذا مما لا يمكن لنا فعله (وهو لا يمكن حقا) ، إذن إما أن الكلاب لا تستطيع مطلقا التفكير بأفكار أو أن أفكار الكلاب لابد وأنها مما لا يمكن التعبير عنها منهجيا – وبالتالى فإنها أبعد من إدراكنا .

وأى من البديلين ليس صحيحاً بالضرورة . والرأى بأن «فكرة» الكلب قد لا يمكن التعبير عنها (باللغة البشرية) لمجرد أن التعبير باللغة البشرية «يقطع فواصل جد دقيقة» ، هذا الرأى كثيراً ما يحدث تجاهله ، هو والرأى الناتج عنه طبيعيا : الرأى بأننا على الرغم من ذلك يمكننا أن نصف وصفا شاملاً ما لا يمكننا التعبير عنه ، بحيث لا نترك مطلقا أى بقية من غموض . إن الكلب لابد وأن تكون لديه طرائق معينة لتمييز الأشياء ، وهذه الطرائق تنتظم فى «مفاهيم» معينة وخاصة تماماً . وإذا أمكننا استنتاج كيف تعمل هذه الطرائق ، وأن نوصّف كيف تعمل معا ، فإننا سوف نعرف عندها الكثير حول محتوى أفكار الكلب مثلما نعرف محتوى أفكار إنسان آخر من خلال الحوار ، حتى وإن كنا لا نستطيع أن نجد جملة (بالإنجليزية أو أى لغة بشرية أخرى) «تعبّر» عن هذا المحتوى .

ونحن البشر أصحاب العقول عندما نقوم من خلال منظورنا الراقى رقيا فريدا باستخدام حيلتنا «نحن» الخاصة حيث نطبق الموقف القصدى على الكيانات الأخرى، عندما نفعل ذلك فإننا نفرض طرائقنا عليهم ، ونخاطر بأن نضفى على هذه المنظومات التى نحاول فهمها مرتبة من الوضوح والتميز والاتساق بأكثر مما ينبغى . ونحن أيضاً نخاطر بأن نضفى على النموذج الذى نصنعه لهذه المنظومات البسيطة «صنفا» بعينه من التنظيم الخاص بعقولنا نحن أنفسنا ونضفيه عليها بأكثر مما يبغى . واحتياجاتنا ليست كلها احتياجات مشتركة مع هذه الكيانات البسيطة التى رُشحت كأصحاب عقول ، وبالتالى فإن رغباتنا ليست كلها رغبات مشتركة معها . وبالتالى كذلك فإن ممارساتنا العقلية وبالتالى مواردنا العقلية ليست كلها مشتركة معها .

والكثير من الكائنات الحية «تخبر» الشمس ، بل وتهتدى فى حياتها بمرورها. وزهرة عباد الشمس قد تتابع الشمس فى أدنى حد بأن تلتوى لتواجهها وهى تعبر السماء ، فتعظم من تعرضها يوميا لضوء الشمس ، ولكنها لا تستطيع التغلب على مظلة تتدخل بينهما . وهى لا تستطيع أن تتوقع عودة الشمس للطلوع فى وقت تال محسوب لتكيف من «سلوكها» البطئ البسيط حسب هذا التوقع . وربما يكون أحد الحيوانات قادراً تماماً على مثل هذا التصرف المعقد ، معدلا من تحركاته ليبقى نفسه مختبئا فى الظل عن فريسته ، أو أنه حتى يتوقع المكان الذى يتمدد فيه فى الشمس لينام طويلاً ، مدركا (بصورة مبهمة وبغير تفكير) أن ظل الشجرة سوف يستطيل سريعا. والحيوانات تتابع الأشياء الأخرى وتعيد التعرف عليها (الأليف، الفريسة،

الذرية، أماكن الطعام المفضل) ، والحيوانات قد تتابع الشمس على نحو مماثل . أما نحن أفراد البشر فإننا لا نكتفى فقط بمتابعة الشمس ، وإنما نقوم أيضاً باكتشاف انطولوجى حول الشمس : أنها «الشمس !» نفس الشمس ذاتها فى كل يوم .

وقد طرح عالم المنطق الألمانى جوتلوب فريجه مثلاً كتب عنه المناطقة والفلاسفة لأكثر من قرن من الزمان : وهو أن نجمة الصباح التى كان القدماء يعرفونها باسم الفوسفور ، ونجمة المساء التى كانوا يعرفونها باسم هسبيروس هما نفس الجرم السماوى الواحد : الزهرة . وهذه الحقيقة معروفة اليوم ، ولكن الكشف عن هذا التطابق كان تقدما جوهريا مبكراً فى علم الفلك . من من بيننا يستطيع اليوم أن يصيغ محاجة ويحشد الأدلة الحاسمة عن ذلك دون أن ينشد المعونة من أحد الكتب؟ على أننا حتى ونحن أطفال صغار نفهم هذا الفرض بسهولة (ونتقبله طائعين) . ومن الصعب أن نتصور أن أى كائنات أخرى يمكن قط أن تتوصل إلى صياغة الفرض بأن هاتين النقطتين اللامعتين هما نفس الجرم السماوى الواحد ، دع عنك أن تثبته .

ألا يمكن أن هذه الأقراص الضخمة الساخنة التى تتخذ لنفسها مساراً يومياً عبر السماء ، هى أقراص جديدة فى كل يوم ؟ بل إننا أفراد النوع الوحيد الذى يمكنه أن يصيغ هذا السؤال . ولنقارن الشمس والقمر بالفصول . إن الربيع يعود ثانية فى كل عام ، ولكننا لم نعد (بعد) نسأل عما إذا كان ما يعود هو «نفس» الربيع . ولعل الربيع وقد جُسد كإلهة فى الزمن القديم ، «كان» أسلافنا يرونه على أنه كيان مفرد له أن يعود ، وليس بالكلى الذى يتكرر وقوعه ، أما بالنسبة للأنواع الأخرى فإن هذا ليس بقضية على الإطلاق . وبعض الأنواع لها حساسية شديدة للتغيرات ؛ فهى تستطيع فى بعض المجالات أن تميز تفاصيل أكثر كثيراً مما نستطيع تمييزه بحواسنا المجردة (وإن كنا فى حدود ما يعرف ، نستطيع بمساعدة من توسعنا بالأعضاء الصناعية – كالميكروسكوب «المجهر» ومقياس الطيف ، والكروماتوجرافيا(*) الغازية وما إلى ذلك – نستطيع بهذه المساعدة أن نصل إلى تمييز تفاصيل أدق فى كل شكلية مفردة على نحو أرهف من أى كائنات أخرى على كوكبنا) . ولكن هذه الأنواع الأخرى ليس لديها إلا قدرة محدودة جداً على التأمل ، وحساسيتها يتوجه مسارها فى مجموعات من الاحتمالات الضيقة نوعاً ، كما سوف نرى .

ونحن فى تباين مع ذلك «نعتقد بكل شىء» . فلا يوجد فى الظاهر أى حد

(*) الكروماتوجرافيا طريقة كيميائية لفصل وتمييز مكونات الخليط الكيميائى مهما كانت مقاديرها صغيرة ، وذلك حسب اختلاف سرعة ذوبان الخليط فى محلول واحد قد يكون سائلاً أو غازياً (المترجم) .

لما يمكن أن نعتقد به ولما يمكن أن نميزه فى اعتقادنا . فنحن نستطيع أن نميز بين الاعتقاد بأن الشمس تكون وظلت دائما وهى تكون النجم نفسه فى كل يوم» وبين الاعتقاد بأن

«الشمس قد ظلت نفس النجم فى كل يوم منذ ١ يناير ١٩٠٠ ، عندما تلقت آخر شمس مهمتها من الشمس السابقة لها» .

وأظن أنه ما من أحد يعتقد بهذه الفقرة الأخيرة ، ولكن من السهل أن نرى ما يكونه هذا الاعتقاد ، وأن نميزه معا عن المعتقد المقنن وأيضاً عن المعتقد التالى الذى وإن كان يماثله سخافة إلا أنه معتقد مختلف ، وهو الإعتقاد بأن

«أحدث تغير فى الشموس قد حدث فى ١٥ يناير ١٩٨٦»

والصيغة الأساسية لكل هذه الحالات العقلية التى تُضفَى على المنظومات القصدية هى جمل تعبر عما يسمى «مواقف القضايا»

س يعتقد فى أن ع .

ص يرغب فى أن ف .

ش يتساءل عما إذا كان ل .

تتألف هذه الجمل من ثلاثة أجزاء : حد يشير إلى المنظومة القصدية التى يُدرس أمرها (س، ص، ش) وحد للموقف الذى يضفى عليها (يعتقد ، يرغب ، يتساءل ...) ، وحد للمحتوى المعين أو المعنى المعين لهذا الموقف – أى «القضية» التى يشار إليها فى هذه الحالات المنمذجة بحروف ع، وف، ول . والجمل الواقعية لإضفاء المحمول(*) يتم فيها بالطبع «التعبير» عن هذه القضايا «كجمل» (بالانجليزية أو بأى لغة يستخدمها المتكلم) ، وهذه الجمل تحوى حدوداً قد لا يمكن أن يحل محلها بلا قيد الحدود التى تتشارك معها فى امتدادها – بمعنى ظاهرة عتامة المرجعية.

القضايا إذن ، هى الكيانات النظرية التى نتعرف بها على المعتقدات أو نقيسها بها. وحتى يتشارك معتقدان أثنان فى الاعتقاد بنفس المعتقد ، فإن هذا يعنى حسب التعريف أنهما يعتقدان بنفس القضية الواحدة . وإذن فماذا تكون القضايا ؟ إنها حسب التقليد الفلسفى المتفق عليه اتفاقا متبادلا ، المعانى المجردة التى تتشارك فيها كل «الجمل» التى ... تعنى نفس الشىء . ها هى دائرة منذرة تنبثق من دخان المعركة . هناك فيما يفترض قضية واحدة يتم التعبير عنها هى نفسها بواسطة التالى:

١ – Snow is white الثلج أبيض (بالإنجليزية) .

(*) المحمول فى المنطق ما يقال أو ما يضفى على موضوع . (المترجم) .

٢ – La neige esr blanche (بالفرنسية) .

٣ – Der schnee ist weiss (بالألمانية) .

وعلى كل حال ، نحن عندما نضفى إلى توم الاعتقاد بأن الثلج أبيض ، فإننا نريد لبيير وويلهلم أن يكونا قادرين على إضفاء نفس الاعتقاد على توم باللغة التى يتعلمان بها . وحقيقة أنه قد لا يلزم على توم أن يفهم إضفاءاتهما أمر خارج عن الموضوع . وفيما يتعلق بذلك ، فإن توم لا يلزم أن يفهم ما أضفيه (أنا) ، وذلك بالطبع لأن توم ربما يكون قطة أو تركيا لا يتكلم إلا لغته.

ولكن هل هناك قضية واحدة يتشارك أيضاً فيها نفسها ما يلى :

٤ – بيل ضرب سام .

٥ – سام ضُرب بواسطة بيل .

٦ – بيل كان العامل الفعال لفعل الضرب الذى كان سام ضحيته .

إنها كلها تقول «نفس الشىء» ، إلا أنها كلها تقول هذا «الشىء» بطرائق مختلفة . هل ينبغى أن ترتب القضايا حسب «طرائق قولها» أو حسب «الأشياء التى تقولها» ؟ إن إحدى الطرائق البسيطة والجذابة من الوجهة النظرية لحسم هذه المسألة هى أن تسأل عما إذا كان من يعتقد ، يستطيع الاعتقاد بإحدى هذه القضايا بدون الاعتقاد بالأخرى . وإذا كان الأمر كذلك ، فإنها تكون قضايا مختلفة . وعلى كل، إذا كان للقضايا أن تكون الكيانات النظرية التى تقيس الاعتقاد ، فإننا لن نريد لهذا الاختبار أن يفشل . ولكن كيف نستطيع أن نختبر ذلك إذا كان توم لا يتكلم الإنجليزية أو لم يكن متكلما على الإطلاق ؟ ونحن الذين نعطى الإضفاء يجب علينا – على الأقل عندما نعبر عن إضفاءاتنا لغويا – أن نتقيد بمنظومة للتعبير ، أى بإحدى اللغات ، واللغات تختلف فى بنيتها كما تختلف أيضاً فى مصطلحاتها . ونحن إذ نكون مقسورين هكذا داخل بنية لغة واحدة أو الأخرى ، فإننا طوعا أو كرها نضطلع بتمييزات أكثر مما قد تسوغه الظروف . وهذه هى النقطة المهمة فى التحذير الذى أطلقته فيما سبق عن الإضفاء «التقريبى» للمحتوى بما يكفى لنجاح الموقف القصدى .

يشبه الفيلسو بول تشيرشلاند القضايا بالأرقام – فهى أشياء تساويها فى تجردها وتستخدم لقياس الكثير من الخواص الفيزيائية .

س وزنه بالجرامات ١٤٤

ص سرعته بالأمتار فى الثانية ١٢

من الواضح أن الأرقام تحسن السلوك وهى تقوم بهذا الدور . ونحن نستطيع أن نستبدل «المتساويات بالمتساويات» . وليس من صعوبة فى أن نتفق على أن س وزنه بالجرامات هو ٢ × ٧٢ أو أن ص سرعته بالأمتار فى الثانية هى ٩ + ٣ . وإنما كما رأينا ، فإن هناك صعوبة فى أن نحاول تطبيق نفس قواعد التحويل والتكافؤ على تعبيرات مختلفة لما يزعم أنه نفس القضية . فالقضايا بكل أسف كيانات نظرية لا تحسن السلوك مثل الأرقام . فالقضايا تشبه الدولارات أكثر من الأرقام !

هذه الماعزة قيمتها خمسون دولارا .

ما هى قيمتها بالدراخمات اليونانية ، أو الروبلات الروسية [فى أى يوم من الأسبوع !] – وهل قيمتها اليوم أكثر أو أقل مما كانت فى أثينا القديمة أو كجزء من الإمدادات فى حملة ماركو بولو الاستكشافية ؟ لا ريب أن الماعزة لها دائماً قيمتها عند مالكها ، ولا ريب فى أننا نستطيع أن نحدد قياسا إجرائيا تقريبيا لقيمتها بأن ننفذ – أو نتخيل أننا ننفذ – مقايضة بالنقد أو بمسحوق الذهب أو الخبز أو أيا ما يكون . ولكن لا توجد منظومة محددة محايدة أبدية لقياس القيمة الاقتصادية ، وبالمثل لا توجد منظومة محددة محايدة أبدية لقياس المعنى بالقضايا . فماذا إذن ؟ أظن أنه سيكون أمراً طيباً أن توجد مثل هذه المنظومات ؛ فهى ستساعد على أن يكون العالم أكثر دقة ، وهى قد تجعل مهمة المنظّر أبسط . إلا أن وجود منظومة شاملة للقياس ذات معيار واحد أمر لا ضرورة له للنظرية ، سواء بالنسبة للنظرية الاقتصادية أو نظرية المنظومة القصدية . والنظرية الاقتصادية الصحيحة لن يهددها أن يوجد قدر من عدم الدقة لا يمكن حذفه ، عندما تقيس هذه النظرية القيمة الاقتصادية قياسا يُعمِّم لكل الظروف فى كل الأوقات . ونظرية المنظومة القصدية الصحيحة لن يهددها أن يوجد قدر من عدم الدقة لا يمكن حذفه ، عند قياسها للمعنى عبر نفس الطيف الشامل . وما دمنا منتبهين لهذه الصعوبة ، فإننا نستطيع التعامل مع كل المشاكل الموضعية تعاملا جد مُرضى ، مستخدمين أى منظومة تقريبية جاهزة نختارها .

سوف نجد فى الفصول التالية أننا عندما نأخذ مقدرتنا على «الاعتقاد بكل شىء» لنطبقها على كائنات «أقل درجة» ، فإن هذا سوف ينظم لنا المعطيات بسهولة : فهى ستخبرنا أين تكون نظرتنا التالية ، وتضع الشروط الحدّية ، وتلقى ضوءاً كاشفاً على أنماط التشابه والاختلاف . على أنه كما رأينا من قبل ، لو أننا لم نتخذ الحيطة فإنها تستطيع أيضاً أن تشوه رؤيتنا تشويها فاجعا . وعندما نعامل أحد لكائنات الحية، أو أى من منظوماته المتفرعة الكثيرة ، على أنه منظومة قصدية بدائية تتابع

«بلا تفكير» وعلى نحو بدائى غاياتها التى لا ريب فى تعقدها ، عندما نفعل ذلك فإن هذا أمر يختلف تماماً عن أمر آخر ، وهو أن نعزو لهذا الكائن قدرة الإدراك التأملى لما يفعله . إن نوع التفكير التأملى كما هو لدينا ، ابتكار تطورى حديث جداً.

والجزيئات الكبيرة الأصلية الناسخة لذاتها «لديها» أسبابها لما تفعله ، ولكنها ليس لديها أى لمحة معرفة لهذه الأسباب . وفى تباين مع ذلك فإننا نحن نعرف أسبابنا – أو نعتقد أننا نعرفها ، وليس هذا فحسب ، وإنما نحن أيضاً نوضحها ونناقشها وننقدها ، ونتشارك فيها . إنها ليست فقط أسبابا لفعلنا ؛ أنها أسباب «لنا» . وفى المسافة التى بين الجزيئات الكبيرة وبيننا هناك قصة طويلة تُروى . فلننظر مثلاً أمر فرخ الوقواق الذى يتم فقسه فى عش أجنبى بواسطة آباء يتبنونه دون أن يدروا(*) . إن أول فعل له عندما يخرج من بيضته هو أن يدحرج البيض الآخر خارج العش . وليست هذه بالمهمة السهلة ، وسوف ننبهر تماماً عندما نرقب كيف يسلك الطائر الوليد سلوكاً ضارياً واسع الحيلة وأحادى التفكير حتى يتغلب على أى عقبات تقع فى طريقه وهو يطرح بعيداً البيض الآخر . لماذا يفعل ذلك ؟ لأن هذا البيض يحوى منافسين له على رعاية كافليه البدلاء . وهو إذ يتخلص من منافسيه ، يعظم من قدر ما سيتلقاه من طعام ومن رعاية تحميه . وبالطبع ، فإن الوقواق حديث الولادة غير واع لذلك ؛ فليس لديه أى معرفة بهذا الأساس المنطقى لسلوكه الذى لا رحمة فيه، ولكن هذا الأساس المنطقى «موجود» ، وهو بلا شك قد شكل هذا السلوك الفطرى عبر الدهور. و«نحن» نستطيع أن نعرفه ، حتى ولو كان الوقواق لا يستطيع . وأنا أسمى مثل هذا الأساس المنطقى بأنه «تلقائى» ، لأنه غير «مُتمثَّل» فى الفرخ أو فى أى شىء آخر ، حتى وإن كان فعالاً – عبر الزمان التطورى – فى تشكيل وإرهاف السلوك موضع البحث (بأن يوفر له مثلا احتياجاته المعلوماتية). والمبادئ الاستراتيجية المضمنة هنا ليست مشفرة بوضوح فى التنظيم الأكبر للمعالم المصممة، وإنما هى فحسب أمر ضمنى . كيف يحدث أن يتم الاستحواذ على هذه الأسباب والتعبير عنها تعبيراً واضحاً فى بعض ما تطور من عقول ؟

(*) يضع طائر الوقواق بيضه فى عش طيور أخرى تقوم باحتضان بيض الوقواق حتى يفقس (المترجم) .